الباب الثامن

«من ذكريات معتقل سياسى»
مذكرات صليب إبراهيم

obeikan.com

obeikan.com

(١)

هذا كتاب ولد عزيزا على صاحبه، وقد أحس مؤلفه بالواجب تجاهه، وأحس بأنه قصر فى تأليفه ونشره، فآثر أن ينشره على نفقته وأن يعنى به ما وسعته العناية، ومع أن موضوع الكتاب كان من الموضوعات المطروقة فى كتابات كثيرين من كتابنا الذين عانوا مما عانى منه المؤلف ؛ فإن الأستاذ صليب إبراهيم نجح فى أن يقدم كتابًا ذا مذاق مختلف ـ وإن لم يكن فى حاجة إلى هذا الاختلاف ـ لكنه بحكم نضجه كان قد أصبح واعيًا للوقائع التى يتناولها ودلالاتها المختلفة، وربما أن وعيه هذا يفوق وعى كثيرين من الكتاب المحترفين الذين تناولوا التجربة ذاتها من قبل.

والواقع أن صاحب هذه المذكرات لم يكتب ما كتب من أجل أن ينال به مجدًا أو ماضيًا أو أن يسجل به بطولة أو كفاحًا مع أن هذا وارد وليس بحاجة إلى نفى، لكن صاحبنا وجد أن من واجبه تجاه ذريته أن يسجل لهم هذه التجربة التى لم يقدر لهم أن يحيوها وهم أطفال، وهو فخور أمام نفسه بهذه التجربة، وفخور أمامهم بأنه كان من المجاهدين بفكرهم، وفخور أمامنا بأنه كان من زمرة هؤلاء الوطنيين الذين قاسوا الأمرّين على يد نظام الرئيس عبد الناصر.

نعرف من بدايات هذا الكتاب أن صاحبه انتمى إلى اليسار، وأن هذا الانتماء قاده قبيل الثورة إلى الاعتقال السياسى عقب حريق القاهرة، لكننا لا نعثر فى الكتاب كله على ما يدل على تحول صاحبه إلى اليسار ولا على انجذابه إليه، ولا حتى على تشبعه به، وكأنما استيقظ صاحبنا فوجد نفسه يساريًا، أو وجد نفسه مصنفًا على أنه يسارى . . وهكذا نجد أنفسنا نشاهد الفيلم من وسطه من دون أن تعود بنا الكاميرات

إلى ما قبل هذه اللحظة التى بدأت العمل عليها . . وكأنما هذا الكتاب جزء ثان من كتاب سابق يتناول حياة صاحبه قبل أن تندفع به الأحداث إلى المعتقلات .

(٢)

ومع هذا فقد نجح المؤلف فى أن يلخص حياته على هذا النحو الذكى الذى أوحى به عنوان مذكراته ، وهو عنوان متواضع فى كل كلمة منه ، حتى وإن أوحت بعض كلماته بغير التواضع ، فالكلمة الأولى (من) تشير بوضوح إلى دقة التواضع وتواضع المعرفة . والكلمة الثانية (ذكريات) تشير إلى الاحتراز الطبيعى من أن تصور الذكريات على أنها مذكرات . والكلمتان الثالثة والرابعة تختزلان تاريخ صاحبهما فى صفة لم تدم إلا طيلة مدة الاعتقال ، ومع هذا فإنها ألقت بظلها على حياته فيما بعد ذلك .

وكما أن الأستاذ صليب إبراهيم لا يحدثنا عن ماضيه فى اليسار ولا فى الانتماء إليه ، فإنه لا يحدثنا عن السبب الذى دفع باسمه إلى كشوف المعتقلين ، ولا على النشاط الذى جعله مطلوبًا مرة واثنين . . إنما هو معنى فحسب بالحديث عما حدث بعد اللحظة لا عما حدث قبلها .

(٣)

ولا يفتأ الأستاذ صليب إبراهيم يحدثنا فى نعومة وتواضع وسلاسة عن معتقداته فى ثورة يوليو بداية وعهدًا ونهاية ، وهو يجاهر بما لا يجاهر به غيره من إيمانه بسيطرة الفاشية على فكر رجال الثورة ، وهو يقول فى هذا المعنى :

«ولم يتنبه الشيوعيون وقتذاك إلى الهوية الفاشية للثورة ، وهى هوية تكره الشيوعيين أكثر مما تكره الاستعمار» .

وهو يدلل على فكرته بما عبر عنه عبد الناصر نفسه فى خطبته يوم ٢٣ ديسمبر فى بورسعيد ، عندما شن على الشيوعيين - الذين كانوا يدافعون عن بورسعيد قبل ١٩٥٨ عامين أثناء العدوان الثلاثى - أبشع حملة استعان فيها بكل التهم الباطلة والنعوت التى لم يسبق أن صدرت من قائد وطنى فى مصر ، ثم لحق به الكاتب محمد حسنين هيكل

الذى أعلن فى مقاله بالأهرام أنه يتوجب على الشيوعيين أن يغلقوا أفواههم ويضعوا عليها أقفالاً من حديد وإلا . . (وكانت بعد ذلك هذه ال . . إلا)، وهو يمضى فيقول :

«. . . وسرعان ما ضرب عبد الناصر ضربته فى أول يناير ١٩٥٩ التى فاجأت الشيوعيين، ففى اليوم السابق فقط كان الدكتور عبد العظيم أنيس يتوقع أن يسود العقل فى النهاية، وأن الثورة سوف تدرك أنه لامصلحة لأحد فى استمرار هذا الشقاق بين القوى الوطنية . ومن هنا عندما بدأت للمحاكمة الكبرى للشيوعيين التى قدمت فيها الثورة ٦٤ معتقلا إلى المحكمة العسكرية التى عقدت بالإسكندرية فى أكتوبر ١٩٥٩، لم يكن لدى الشيوعيين إدراك كامل بحقيقة العداء الذى كان يكنه عبد الناصر، وكانوا يتصورون أنهم يستطيعون أن يحققوا عليه انتصاراً فى ساحة العدل ونسوا أن العدل كان آخر ما يشغل ذهن عبد الناصر، فقد كان كل ما يملأ رأسه هو كرسى الحكم».

«وتم فعلا وبعدها بأسبوع واحد ما هدد به الأستاذ هيكل كل القوى الوطنية وبدلا من غلق أفواههم فقط، أغلقت عليهم أبواب الزنازين بالمعتقلات والسجون». وبعد ١٤ صفحة يعبر صليب إبراهيم عن المعنى ذاته فيقول : «ماهذا ؟ هل هذه هى الدولة الثورية (الأحرارية) الوطنية الاشتراكية الديمقراطية . . أم أننا كنا نعيش مع محرقة هولوكوست وجستابو مصرى ليتم إبادة كل مفكرى هذا البلد وحتى لايعلو أى صوت على صوتهم . . صوت نيرون . . ثم يبررون ذلك، بأن الحاكم لم يكن يعلم . . ياسلام . . ألم يعلم بالقتل والإبادة وكما قال الشاعر إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم».

(٤)

ومع هذا فإن صليب إبراهيم يتعاطف تعاطفًا غير خفى مع الفلسطينيين الذين زجت بهم الثورة فى المعتقلات مشيراً إلى تجربته فى مزاملة معين بسيسو، وعبد القادر ياسين، وغيرهم من معتقلى غزة الذين قدر له أن يزاملهم حين امتد النظام الناصرى باعتقالاته إلى الفلسطينيين فى غزة حين كانت واقعة تحت الإدارة المصرية :

«وانخرط الرفاق الفلسطينيون معنا فى الحياة لهم ما لنا وعليهم ما علينا وكلنا فى

المهانة سواسية . وكان للشاعر الفلسطيني الكبير تواجده ليلاً . . عندما تغلق الزنازين ويعم الظلام ويتطلق الشاعر من خلف الأبواب ببعض قصائده . . التى أشعلت الحماس . وبدأ التنافس بين الشعراء، يرد عليه محسن الخياط وفؤاد حداد وغيرهم بما تجود به قرائح الغير».

«وقد تبين أن معين بسيسو اعتقل مع خطيبته، وقبض أيضًا على إخوته الثلاثة، فبكت الأم لهول ما أصابها فى بنيها، وقال لها معين بشعره :

لك الجماهير أبناء بلا عدد

فلست وحدك يا أمى بلا ولد

ومن أقواله المأثورة التى قيلت :

أنت إن سكت مت

أنت إن نطقت مت

فقلـــــها، ومت

ورد عليه البلبل فؤاد حداد بقصيدته :

الموت طليق الناب

بيفـــرق الأحباب

الموت على الأبواب

ســادد علينا الدرب

الشرد والزمهرير والدوامات توب لى

عديت صحارى وليالى مهلكة تبــلى

وسوس فى صدرى شيطان الراحة قال تب لى

م الغــربة بعد الشقا . . أنا قلت يا شــيطان

دا الحــب أوطان . . وكأن الحــب مكتوب لى»

(٥)

ويحرص صليب إبراهيم على الإشارة إلى أن معين بسيسو كان يرفض (وهو فى المعتقل) أن يقرأ للمعتقلين قصائده التى أشاد فيها بالتجربة الناصرية قبل أن يقع أسيراً للاعتقال السياسى الظالم.

«ولقد حاول الزملاء من تنظيم (حدتو) أن يسمعوا من معين بسيسو بعض قصائده التى كانت تتحدث عن أمجاد عبد الناصر، ولكنه رفض ذلك، وكيف والبصمات على جسده توضح نهاية هذه البطولات!!».

(٦)

كذلك فإن صليب إبراهيم يبدى رأيه الواضح فى إعدام خميس والبقرى فى بداية عهد الثورة، وهو يقرن هذا الرأى برأى مماثل فى الإهانة التى حرص العهد الجديد على أن يلحقها بعدلى للموم كرمز من رموز الإقطاع أو العائلات الكبيرة.

ويبدو صليب إبراهيم متأثراً كل التأثر بالمصير الذى لقيه فرج الله الحلو، سكرتير الحزب اللبنانى، الذى أذيب جسده فى الأحماض، وهو يرى أن النظام الناصرى لجأ بعد ذلك إلى عملية الإذابة المعنوية والجسدية البطيئة حتى لا تفوح رائحة الجريمة:

«ومع هذا فإن المصادفات القدرية (أوعلى حد تعبير صليب إبراهيم: الرياح التى تأتى بما تشتهى السفن) جعلت «دماء شهدى عطية العطرة» تسيطر على يوغسلافيا وتوقف مخطط إبادة اليساريين».

«ولم يكن البطل شهدى هو أول من اغتيل ضرباً وقتلاً، بل كان قد سبقه الشهيد محمد عثمان والشهيد الدكتور فريد حداد. قتل شهدى عطية فى ١٥ يونيو ١٩٦٠، وعندما تناثرت الأنباء ووصلت إلى أسرته بنشر نعى وفاته بجريدة الأهرام فى ٢٠ يونيو ١٩٦٠ فى نعى عجيب أثار انتباه كل قراء الأهرام (وكيف مر النعى على الرقابة فى صفحات الوفيات!!)، يتصدر النعى التالى:

«شهدى عطية الشافعى»

«عطية الشافعى وأسرته ينعون بعد أن واروا عزيزهم فخر الشباب الأستاذ شهدى عطية الشافعى مقره الأخير ويقولون لمن واساهم : لن نشكركم فالشكر لكم فى هذا الموقف نكران لوفائكم . وشهدى وذكراه ملك لكم وأمانة فى ضمائركم . . أما أنت يا عزيزنا الغائب فإننا نرثيك بهذا :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر

تردى ثياب الموت حمراً فى دجى ... لها الليل ألاوهى من سندس أخضر

وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

ونفس تعاف العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

(وهى من قصيدة للشاعر أبى تمام)

«وتناقلت وكالات الأنباء برقيات أسرته ووصلت أخبارها إلى (بريونى) بيوغسلافيا حيث كان عبدالناصر يشهد مع الرئيس تيتو جلسة لمجلس النواب اليوغسلافى وفوجئ بالمجلس يقف حداداً على استشهاد شهدى عطية الشافعى، واحتج أحد النواب اليوغسلاف وقال: مصر تتحدث عن الاشتراكية والديمقراطية وهم يقتلون رموز الاشتراكية والديمقراطية!!».

«ورد عبدالناصر : لم نقتل أحداً . وقدمت له برقيات وكالات الأنباء العالمية، والتى تعلن عن مقتل شهدى عطية من جراء التعذيب على باب أوردى ليمان أبو زعبل فى مصر . وكانت مفاجأة قاسية لعبد الناصر على مستوى عالمى، فأخطر القاهرة ووزير الداخلية بوقف التعذيب وإجراء التحقيق فى ذلك . ومن هنا توقف التعذيب وكان دم الشهيد ضوء أمل وطمأنينة لكل سجناء الرأى وكان الثمن باهظاً للغاية».

(٧)

لهذا السبب نرى صليب إبراهيم حريصاً على أن يضمن مذكراته ذلك النص الذى يعتز به وبالبحث عنه و بعثوره عليه، وهو نص قصيدة « الشهيد » للشاعر محمد مهدى الجواهرى بكل ما تتضمنه هذه القصيدة من المعانى السامية والقيم الثورية . .

وقد فعل الشيء نفسه حين نقل للقارئ صورة من نعي الأسرة الذى نشر فى الأهرام عقب استشهاد شهدى عطية الشافعي متعجبًا ومذهولاً، كما ذكرنا، من غفلة الأهرام عن الانتباه إلى ما تضمنه هذا النعي من دلالات ومن أبيات للشاعر العربى العظيم أبى تمام.

(٨)

وعلى مدى صفحات هذا الكتاب كله يجد القارئ نفسه فى مواجهة كاتب وطنى قادر على الحكم على الأمور وعلى التمسك بصواب حكمه على الأمور، وعلى دفع ثمن هذا الحكم من نفسه وبدنه وعلاقاته، وهو يبدأ سلسلة أحكامه التى ربما تقترب به من الحرص على أن يكون واحداً من ملاك الحقيقة المطلقة !! منذ الصفحة الأولى للكتاب حين يضع جملتين بتوقيعه، يقول فى الأولى : « ٢٦ يناير ١٩٥٢ حرق الملك فاروق القاهرة ». ويقول فى الثانية : « أول يناير ١٩٥٩ أحرق النظام كل قوى التقدم واليسار » . .

هكذا يقول صليب إبراهيم وكأنه يبخل على عبد الناصر بالمسئولية عما يراه مسئولاً عنه !! وعما أنفق ساعات كتابه فى إثباته .

(٩)

ومع أن صليب إبراهيم يعادى سلوكيات ثورة ٢٣ يوليو تجاه الشيوعيين، فإن صليب إبراهيم لايقف متحفظًا على علاقة الثورة بالإخوان، وإنما هو حريص فى كل مناسبة على إدانة الطرفين بما يستحقان (فى نظره) وبما لا يستحقان (فى فكره كذلك) كذلك . . وهو يقف مذهولا (من داع للذهول) أمام تحول بعض رموز اليسار إلى فكر الإسلام السياسى وكأن التحول الفكرى أمر غير وارد على الإطلاق .

(١٠)

ويحفل كتاب الأستاذ صليب إبراهيم بحديث ممتع عن شخصيات قدر له أن يعرفها وأن يزاملها، ولعل أهم هذه الأحاديث هو تعريفه الجميل والوافى بشخصية صديقه شوقى عبد الحكيم الذى يصفه فى بداية الكتاب بأنه شخصية نادرة مملوءة بالحب

والسياسة والثقافة، وقرب نهاية الكتاب يقدم صورته بقدر كبير من التفصيل، فيقول ضمن ما يقول :

«وكان أول كتاب له (أدب الفلاحين) كتب مقدمته الدكتور مصطفى مشرفة . وكانت من أجمل دراساته فى صباه أيضًا، والتى عاصرت كتابتها وهو فى مقتبل عمره، عن العوالم وأهل المزازيك والفن الشعبى فى محافظة الفيوم . فقد سجل حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم فى دراسة واقعية فنية تبين أحوال قطاع من حياة فئة بعض المهمشين فى الدنيا».

«وقد سار على الدرب الفكرى والبحثى، فكتب وبحث ودقق، وكانت حصيلة كتبه أكثر من أربعين كتابًا طبعت بمصر وبيروت، وتحوى موسوعة الفلكلور والأساطير العربية . وكتب أيضًا ١٨ مسرحية مستلهمة من التراث الشعبى، منها : شفيقة ومتولى، المستخبى، حسن ونعيمة، خوفو، الشبابيك، الأعيان، مولد ملك عجوز، أوكازيون، رمسيس، وغيرها . . وصدر له العديد من الروايات، مثل : أحزان نوح، دم بنى يعقوب، الموت والتفاهة، الضحك والدمامة، إستراكون عربية أو هجائيات عربية».

«ترجم له عملان إلى الإنجليزية هما : الأميرة ذات الهمة وبيروت البكاء ليلاً. أعد أول باليه شعبى من ثلاثة فصول لفرقة رضا للفنون الشعبية، وبدأ شوقى عبدالحكيم العمل عام ١٩٦٢ محرراً أدبيًا بجريدة الأهرام ونشر بها بعض النصوص المسرحية التى عثر عليها فى محافظة الفيوم من مآسى و مرتجلات، ثم التحق بجريدة الأخبار عام ١٩٦٤».

«فى عام ١٩٧٨ سافر إلى لبنان ومكث بها خمس سنوات، وشاهد الاجتياح الإسرائيلى لبيروت، وكانت قصته الرائعة «بيروت البكاء ليلاً» ».

«انتقل إلى لندن بعد ذلك واستمر هناك حتى عام ١٩٨٩، وعمل أثناءها فى الصحف العربية، وقام بتحقيق دراسة عن كثير من الملاحم والسير الشعبية مثل، الزير السالم، سيرة بنى هلال، وعنترة، والأميرة ذات الهمة . واعتمد فى تحقيقه على

مخطوطة بالمتحف البريطانى تقع فى ٨ أجزاء، وتصل صفحاتها إلى أكثر من ٢٠ ألف صفحة».

«وفى السنوات الأخيرة بدأ ينشر مقالاته فى صحيفة الأهرام كل يوم أحد وتحت عنوان (تراث ومأثورات)، ويخصص كل مقال فيها الجزء من دراسات الأدب والفلكلور، وجزء ثان فى نفس المقال عن مشاكل الحياة اليومية ويتابع فيها ما يحدث من تطورات فى المجتمع».

«ومن مسرحياته التى عرضت على خشبة المسرح، مسرحية شفيقة ومتولى، من إخراج كمال عيد للموسم المسرحى ١٩٦٤/ ١٩٦٣ بمسرح الجيب، ومسرحية حسن ونعيمة، من إخراج كرم مطاوع، موسم ١٩٦٦/ ١٩٦٥ بمسرح الجيب، ومسرحية الملك معروف، إخراج سمير العصفورى، موسم ١٩٧٥/ ١٩٧٤، ومسرحية أوكازيون، إخراج المخرجة الرائعة الدكتورة ليلى أبوسيف أستاذة المسرح، موسم ١٩٧٧/ ١٩٧٦ للمسرح الكوميدى، وتمت إعادة مسرحية شفيقة ومتولى، إخراج أشرف زكى، موسم / ١٩٩٧ ١٩٩٨ مسرح الغد . وكانت آخر مسرحياته التى عرضت على مسرح الطليعة عام ٢٠٠٣ مسرحية «بمالى أفعل مابدالى».

« تم تكريمه فى الدورة الوحيدة التى أقيمت فى مصر تحت عنوان «الملتقى العربى». كما تم تكريمه فى الدورة الخامسة لمهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى .

ومن مدوناته عن «الجمل» رمز الصبر والمشاق .

«جمل المحامل»:

جمل للمحامل برك وكان حاله الأعود وسند

يقوللو يابدرخدنى معاك وأنا أكتب لك حجاب وسند

يقوللو لفيت الكون ملقتش صدر حنين وسند

يفوت الأعودعلى الجمل يقوللويامامهابيل تقول وطول

شى ممن سومبخت الجمل جلله الأعود وسند

«خطابى»:

لوكان ليه جمل — فى فن الشيل خطابى
ما كان غراب البين — حارنى و خطابى
يا فادى قلبى — أثنين خطابى
سايق عليك النبى يارب — يا خالق اللبن فى البز
تقوم البكر مثل عاداته — بحسنه راحت ليالى الهنا
وآدى ليالى الغلب — سد خطابى

«ومن المواويل»

أنا دخلت جوة البلد سراً أريد الناس
لقيت ابن العلالى وطى والندل فوق الناس
أنا عاشرت كل الملل حتى الفجر يا ناس
إحنا سمعنا مثل من كبار الناس
الناس بالناس كرهونى ولاد أمى
يا دنيا الشوم يكفيك هزل بزيادة
وإن خس مالى حدايا أحباب بزيادة
نزلت سوق الدلالة بشترى صبر وزيادة
ورضيت بحكمك علىَّ يارب بزيادة »

(١١)

وهو يثنى كثيراً على بعض زملائه فى المعتقل وفى مقدمتهم المحامى يوسف حلمى، وهو يذكرله حبه لسيد درويش، ويثنى كثيراً على الشاعر فؤاد حداد، ويورد له كثيراً من نصوصه، ويثنى على الدكتورحمزة البسيونى، الطبيب الإنسان، وهو فى فقرات متباعدة يذكر بالثناء كلا من ألفريد فرج، وحسن فؤاد، وعبدالستار الطويلة، ومحمد حمام، وزهدى، وصلاح حافظ، ومهندس الديكور مصطفى كامل .

obeikan.com

(١٢)

وهو حريص أيضًا على الإشارة إلى نشاطه الصحفى فى المعتقل من خلال جريدة «عنبر إلى الأبد» التى صدر منها عددان، وهى صحيفة حائط، كما أنه حريص على أن يضمن كتابه صورًا للحوارات التى أجراها فى المجلة التى قام بتحريرها للشركة التى قدر له أن يعمل فيها بعد فترة من خروجه من الاعتقال .

وهو فى هذا المجال حريص على أن يشير إلى سبقه الصحفى، حين سجل حادثة انتحار فى السجن لمسئول كبير، وأنه بعث بما سجله إلى الكاتب حلمى سلام، فنشر رسالته فى بريد المصور، وأبرزها بما يليق بها . . ومع هذا فإنه يعترف بأنه لايذكر اسم المنتحر!!

كذلك فإن الحاسة الصحفية الغالبة على صليب إبراهيم، تجعله حريصًا على أن يلتقط الأحداث الدرامية فى فترة الاعتقال، وأن يشير إليها حتى لو كانت إشاراته سريعة، ومن هذه الحوادث قصة هروب إبراهيم هرارى من الواحات بطائرة إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا، وهو يرويها على النحو التالى :

« وكان الزميل مندوب توزيع الخبز شخصية متفردة له سحنة أجنبية، لكنه مصرى، وهو الدكتور (إبراهيم أرنست هرارى)، دكتوراه فى القانون الدولى وصاحب مكاتب محاماة عالمية فى مصر وفرنسا، ممشوق القوام، متوسط العمر، لايتحدث كثيرًا مع أحد ولايشترك فى مناقشة ما أو إبداء رأى أو حديث سياسى بوجهة نظر مختلفة» .

«وفجأة اختفى الزميل الدكتور هرارى ومعه صديق له من السجن، واكتشف اختفاؤه بمعرفة الإدارة فى ثالث يوم، وتبين أن سيارة مريبة انتظرته على بعد مسافة طويلة من السجن وأخذته إلى مطار الواحات ليركب طائرة تقله إلى ميناء الإسكندرية ويستقل باخرة إلى فرنسا ومن هناك أعلن وصوله» .

«ورغم مرور أكثر من ربع قرن من الزمان لم يعرف وحتى الآن كيف تم ذلك وبمعونة من؟! وما هى الخطة المحكمة التى رسمت للتنفيذ؟ . وكتب الكثير من الزملاء عشرات الكتب ذاكرين هذه الحادثة، ولم يصل منهم أحد إلى رأى أو معلومة تكشف حل هذا اللغز» .

(١٣)

وفى هذا السياق نفسه يروى صليب إبراهيم موقف أحد ضباط السجن المشهورين من رفض القيام بالتوقيع على خروج المعتقلين بعد تجربة سابقة له .

« . . . وأصدر (همت) أوامره بالتحرك فى انتظام كطابور العبيد إلى العمل حفاة . . عراة . . منكسى الرءوس . وعند الباب الخارجى لسجن الواحات ، أصدر همت أوامره لمأمور السجن بالتوقيع على خروج المعتقلين من الباب الرئيسى كإجراء روتينى ، وقام المأمور بإصدار الأمر للضابط عبدالعال سلومة بالتوقيع فى دفتر الأحوال . . وكانت المفاجأة برفض الضابط التوقيع على ذلك . . وهنا بدأ القلق الفعلى فى عقولنا هل هذا الطريق سيؤدى إلى مجزرة بشرية أخافت الضابط من التوقيع . . أو ماذا يراد بنا؟!» .

«وسمعنا تمتمة الضابط بأنه لن يكرر ما حدث منه سابقًا فى عام ١٩٥٦؟ عندما كان زكريا محيى الدين وزيراً للداخلية ، وأصدر أمراً شفويًا بالاعتداء على أعضاء جماعة الإخوان المسلمين فى أوردى ليمان أبو زعبل ، وفى هذا الاعتداء قتل بعضهم إلى جانب تكسير عظام العديد منهم ، وكان قائد هذه المعركة الضابط عبدالعال سلومة ، وعندما بدأ التحقيق فى هذه المجزرة ، تنصل كل مسئول عنها ، وتم توقيع الجزاء على هذا الضابط ، لأنه لايحمل أمراً كتابيًا بالتنفيذ . . وتم نقله إلى الصعيد ، وكان درسًا له بأن النظام قد يستغنى عن معاونيه بعد أن يمتهنهم ، وأنه لن يكرر هذا الخطأ . وطلب همت من المأمور التوقيع بدلاًمنه ، ووقع» .

(١٤)

ويروى صليب إبراهيم تجربة أسرته الصغيرة فى محاولة معرفة مصيره ، بعد ما أعلن راديو وارسو وفاته فى المعتقل .

«أذاع راديو وارسو اسمى ضمن الذين قتلوا بالصحراء أثناء العمل ، وأذاع خبر وفاتى خارج السجن ، حتى وصل إلى زوجتى السيدة العظيمة ببلدتنا بمدينة الفيوم . فكتبت شكوى موقعة باسم أكبر أبنائى جهاد خمس سنوات وقتذاك ، رسالة مملوءة بألم الطفل نحو شوقه لرؤية والده » .

«وأرسلت الرسالة شخصيًا إلى السيدة حرم رئيس الجمهورية».

«وبعد فترة (كما علمت بعد خروجي) وصل إلى منزل الأسرة صول من بندر الفيوم لاستدعاء الشكوى، وكانت السخرية بأن صاحب الشكوى طفل صغير . . وصحبته أمه إلى مكتب مأمور البندر ليخطرها بالرد . . وهو . . لم يستدل على عنوان المعتقل المذكور وطلب توقيعها بالعلم !!»

ويستطرد صليب إبراهيم، فيقول :

«ويبدو أن هذا أثار بعض المياه الراكدة بطلب توقيع الكشف الطبي على صحتي . وهل أنا عايش أم لا ؟!»

«واستدعيت للعيادة الرسمية بالسجن لأرى السيد طبيب السجن - وهو لايختلف كثيراً عن بعض السجانين غلاظ القلب - وطلب وزني الذي وصل إلى ٤٠ كيلو جرامًا فقط بالتمام والكمال، وعندما عاد إلى سجل النزلاء لحظة حضوري والذي يثبت فيه وزن كل منا، للمحافظة على صحتنا خوف زيادة أو نقص الوزن، وجد أمام خانة اسمي أن وزني كان ٦٠ كيلو، أي بانخفاض ٢٠ كيلو في فترة محدودة».

«واحتار النطاسي البارع ماذا يصرف لي من علاج، حيث لاعلاج لديه غير الشاش والميكروكروم لزوم الجروح والإصابات، أو بعض أقراص الأسبرين . وتفتق ذهن الطبيب الرسمي عن روشتة عجيبة تصرف من للمخبز وليس من الصيدلية (يصرف للمعتقل رغيف واحد لمدة أسبوع)، وخلال الأسبوع كنا نسعد بهذا الرغيف، فهو ثروة رائعة أشاع البهجة في الغرفة التي تحوي حوالي 15زميلاً، كنت أوزع لقمة صغيرة وبمقياس محدد للزميل الذي يرغب، وكان من نصيب الزميل الدكتور شكري عازر، والدكتور محمود القويسني(رحمه الله) نصيب أكبر قليلاً، لأننا نفترش البرش سويًا، ونتسامر ليلاً أثناء القلق».

(١٥)

أما التجارب الإنسانية في هذا الكتاب فثرية بالتعبير الدقيق عن ملامحها حتى إن توارت مع الإحساس بوطأة التعذيب وقسوته، وعلى سبيل المثال نرى المؤلف يعبر عن خوفه من النوم على السرير بعد خروجه من المعتقل :

«وفى الليل وضحت مشكلة طريفة لقد حاولت النوم على سريرى للاسترخاء والراحة، ولكنى فوجئت بعدم استطاعتى ذلك، أحسست أثناء غفوتى بالسقوط من السرير للأرض فأصحو مذعورًا، لأنه طيلة السنوات السابقة كنت أنام أرضًا، ويبدو أن الإحساس بالجاذبية الأرضية من الأماكن المرتفعة عن الأرض ولفترة طويلة كان الإحساس بالخوف من السقوط يلازم الإنسان، ورغم التصاقى بالحائط عند النوم ووضع وسائد بجوارى خوفًا من السقوط، لكن كان الجسد قد تعود على النوم أرضًا. ومشكلة طريفة أخرى . . أن طفلى الصغير (ماجد) ثلاث سنوات. والذى ولد بعد اعتقالى بشهور. قد التصق بوالدته فى نومها وقال ببراءة محببة: أنا أنام فى حضن ماما، إنت صغير زيى وعاوز ماما، ماما بتاعتى أنا بس . .

أما أطفالى الآخرون (جهاد) ٦ سنوات و(أمل) ٥ سنوات، فقد تقبلانى ببساطة، لأن والدتهم الزوجة العظيمة كانت دائمًا تحدثهما عنى، وكانت تريهما ملابسى فى دولابى يتحسسونها ويشمونها ويعبثون بها . . هدوم بابا، وحاجات بابا، ودولاب بابا، وصور بابا، الذى سيعود من سفره قريبًا . .».

(١٦)

وهو يثنى الثناء كله على زوجته، وكفاحها، ووطنيتها: «استدعاها لأكثر من مرة الضابط عبد العزيز شاكر رئيس المباحث العامة بالفيوم وحذرها، ثم هددها بوقف نشاطها والاتصال بعائلات المعتقلين وفرض رقابة بوليسية على تحركاتها، وحملت بصلابة وشجاعة وشرف ووفاء عبء غياب الزوج وتعرضت لأزمات كثيرة، فكانت فعلاً الزوجة والمرأة الفاضلة وبمحبتها وتدينها العميق».

«قامت بدور كبير ومميز أثناء عدوان ١٩٥٦ على الوطن واشتركت وساهمت بجهد ملحوظ فى التعبئة السياسية والوطنية بمحافظة الفيوم».

«رحلت فجأة من الحياة فى سلام وطمأنينة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٨٤ تاركة سيرة عطرة، وحقًا السيرة الطيبة أطول من العمر».

كما يحرص صليب إبراهيم على أن يسجل أسماء السيدات السياسيات اللاتى

اعتقلن فى سجن القناطر : «وكان سجن النساء يحوى حوالى ٣٥ سيدة وآنسة من فضليات النساء وزوجات بعض المعتقلين السياسيين . . مدام ثريا زوجة المعتقل فوزى الحبشى، سعاد الطويل خطيبة الدكتور شكرى عازر، السيدة أسماء حليم زوجة الزميل أسعد حليم، والسيدة ثريا أدهم زوجة الزميل حلمى يس، وسميرة الصاوى زوجة الزميل أحمد طه، وليلى شعيب خطيبة الزميل رجاء طنطاوى، والرسامة إنجى أفلاطون خطيبة الدكتور فوزى منصور، وأخريات لا تسعفنى الذاكرة العجوز بأسمائهن، وأعتقد أن هذه أول مرة فى تاريخ مصر يتم اعتقال سيدات سياسيات فيها».

(١٧)

ونحن نجد صليب إبراهيم حريصًا أشد الحرص على رواية قصة محاكمة مصطفى طيبة، الذى حكمت عليه الثورة بالسجن، لمحاولة قلب النظام الملكى !!، وهو يجعل عنوان الفصل الذى أورد فيه هذه القصة "طرائف أم عجائب أم غرائب"، و هو يروى القصة بطريقة مؤثرة:

«تم القبض عليه قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بأسبوع تقريبًا وفى عهد الملك فاروق، وبتهمة إدارة تنظيم للحزب الشيوعى المصرى والعمل على قلب نظام الحكم بالقوة . . . إلخ، وكان من المفروض أن الثورة أنهت العهد الملكى بطرد الملك فاروق من مصر، وبذلك تلغى التهمة محل القضية المذكورة، لأن رجال الثورة قاموا فعلاً(بعدل) نظام الحكم بدلاً من قلبه، ولكنه استمر فى سجنه لنظر قضيته وللاستمرار فى سريانها» . .

«وصدر قرار خاص بأن من لم يفرج عنه عليه أن يتقدم تظلمًا بذلك، وتشكلت محكمة خاصة، وبعد عدة جلسات رفضت هذه المحكمة الإفراج عن مصطفى طيبة وزملائه فى القضية، ووضحت فى حيثيات الحكم الذى صدر منها أن الشيوعيين ليسوا سياسيين وإنما هم اقتصاديون !! وأنهم يصبحون سياسيين فى حالة واحدة».

«واستمرت المحاكمة مدة شهرين جلسات صباحية ومسائية، وقبل أن تصل إجراءات المحاكمة إلى نهايتها بأيام، تم القبض على رئيس المحكمة القائمقام أحمد شوقى عبدالرحمن، وتم القبض على محامى المتهم الأستاذ سليمان غنام !».

«وأعتقد أنه لاسابقة تاريخية لمثل هذا الحدث، أن يقبض على رئيس المحكمة، والمحامى، والمتهم !! وإلى السجن مصيرهم جميعًا، وتوقفت المحاكمة قليلاً إلى أن يتم تشكيل هيئة محكمة أخرى تنفذ ما يطلب منها، وفى أكتوبر ١٩٥٤ تشكلت هيئة المحكمة برئاسة اللواء الدجوى، وهو - لمن لم تسعفه الذاكرة - كان حاكم غزة أثناء نكسة ١٩٦٧، وقام بتسليم قطاع غزة للإسرائيليين مستسلمًا ووقع على الهواء مباشرة مراسم التسليم، فيا حسرتاه».

«وفى شهر يناير ١٩٥٤ أعلنت الأحكام بالسجن على مصطفى طيبة عشر سنوات مع الأشغال الشاقة بتهمة قلب نظام الحكم الملكى، وهى التهمة التى قبض عليه من أجلها فى عهد الملك فاروق قبل الثورة».

«وأمضى مصطفى طيبة مدة حكمه بالتمام والكمال، وبدلاً من أن يفرج عنه بعد انتهاء فترة العقوبة، انتقل بقوة قرار الاعتقالات التى يصدرها النظام من سجين إلى معتقل - والفرق كبير - صحيح أنه قد استبدل ملابس السجن من اللون الأزرق إلى ملابس المعتقل باللون الأبيض، وخسر كل المكاسب التى كان يتمتع بها السجين، لازيارات، لإخطابات، لاطرود، لاتعامل مع الكانتين إلا فى حدود مبلغ خمسين قرشًا فى الشهر».

(١٨)

وفى المقابل، فإن صليب إبراهيم يحرص على أن يثبت انتقاداته لرموز الطغيان الذى عانى منه، وفى مقدمة هؤلاء، اللواء إسماعيل همت ضابط مصلحة السجون الشهير، الذى قدر له أن يلقاه فيما بعد ؛ فإذا بصليب إبراهيم ينفر منه ويحرص على أن يعبر له عن احتقاره !!

. . . . . .

ولست أظننى أجد ختامًا لحديثى عن هذه المذكرات بأفضل من هذا السلوك الذى سلكه صليب إبراهيم حين أتاحت له حريته أن يعبر بصدق عن مشاعره الحقيقية تجاه جلاديه.